

فشل مؤتمر وارسو لا يعني استسلام قوى الثورة المضادة

د. سعيد الشهابي

عندما كانت مصر عبد الناصر تقود العالم العربي رافعة شعار القومية العربية والنضال ضد الاستعمار، كانت الولايات المتحدة مرفوضة جملة وتفصيلا لدى الرأي العام العربي بسبب دعمها الكيان الاسرائيلي ووقوفها ضد حركات التحرر الوطني، ولم يكن للتحالف السعودي - الإيراني آنذاك تأثير واسع على ذلك. اليوم عندما اصبح التحالف السعودي - الاماراتي مهيمنا على العالم العربي سياسيا واقتصاديا واعلاميا فتح الباب على مصراعيه للهيمنة السياسية والامنية للتحالف الأمريكي - الاسرائيلي. وبعد ان اثبت هذا التحالف قدرته على النيل من ارادة التغيير لدى الشعوب العربية بعد ان تصدت لثوراته قبل ثمانية اعوام، توسع نفوذ قوى الثورة المضادة، فلم تعد أمريكا او الصهيونية «صديقة» فحسب بل هرع الكثيرون لخطب ود ذلك التحالف.

وفي العام الماضي تجاوز الوضع هذه الحدود، فاصبح هذا التحالف فاعلا في المشروع السياسي لذلك التحالف، وتصدرت السعودية المشهد لتحقيق امور عديدة: اولها تغيير الاولويات العربية والقناعات الشعبية التي تبلورت على مدى سبعين عاما بضرورة تحرير فلسطين واعتبار الولايات المتحدة «عدوة» للتطلعات العربية والاسلامية، ثانيها: استثمار المليارات النفطية لتحديد اغلب الانظمة العربية وتغيير مساراتها وتحالفاتها السياسية بعيدا عن مشروع التحرير والاستقلال. ثالثها: ممارسة دبلوماسية على الصعيد الدولي لشراء مواقف الدول القريبة مما يسمى «محور المقاومة» المناوئ للسياسة الأمريكية - الاسرائيلية في الشرق الاوسط. رابعا: التصدي للمشروع السياسي الاسلامي وضرب حاضناته ورواده.

ضمن هذه المحددات يمكن اعتبار مؤتمر «وارسو» الاخير اول مشروع عملي على طريق صياغة شرق اوسط جديد وفق مقاييس قوى الثورة المضادة واكثر انسجاما مع السياسات الأمريكية - الاسرائيلية. المؤتمر دعت اليه الولايات المتحدة وموله المحور السعودي - الاماراتي الذي فوضته واشنطن العام الماضي بادرة ملف الشرق الاوسط وفق الاستراتيجية الأمريكية الذي عقد يومي 13 و 14 كان هدفه المعلن: «مناقشة الإرهاب والتطرف، وتطوير الصواريخ وانتشارها، والتجارة البحرية والأمن البحري، والتهديدات التي تطرحها الجماعات العميلة عبر المنطقة». وفي مطلع فبراير، قال وزير خارجية الولايات المتحدة، مايك

بومبيو، إن هدف المؤتمر هو التركيز على «تأثير إيران وإرهابها في المنطقة».

ومع ذلك، وبعد الاعتراض الأوروبي على هذا الغرض، اضطرت الولايات المتحدة إلى التراجع عن التخطيط لإقامة ائتلاف عالمي ضد إيران. وكان واضحاً أن منظمي المؤتمر كانوا يأملون بحشد موقف دولي ضد إيران بشكل محدد، على أمل أن يؤدي ذلك لضعاف «محور المقاومة» المدعوم إيرانياً. وقد أثبتت الوقائع لاحقاً أن هذا الطرح كان من أهم أسباب فشل المؤتمر. ومن معالم هذا الفشل ما يلي: أولاً عدم حماس أغلب دول العالم لحضوره، فلم يشارك سوى خمسين دولة بتمثيل ضعيف في أغلبه، وقاطعته أغلب الدول الأوروبية بمن فيها المفوضية الأوروبية ووزيرة خارجيتها فريدريكا موجريني. ثانياً: بعد انتهاء المؤتمر نأى العديد من الدول بأنفسهم عن هدفه الأساس وهو استهداف إيران بشكل مباشر.

ثالثاً: بدت الخلافات بين الجهات الأساسية في المؤتمر في الظهور علناً، وكان أولى الخلافات ما حدث بين بولندا الدولة المضيفة للمؤتمر و«إسرائيل» التي كانت من مخططيها الأساسيين، على خلفية حوادث الحرب العالمية الثانية، بعد أن اتهمت السفارة الإسرائيلية بولندا بالضلوع في اضطهاد اليهود. كانت الولايات المتحدة مرفوضة جملة وتفصيلاً لدى الرأي العام العربي بسبب دعمها الكيان الإسرائيلي ووقوفها ضد حركات التحرر الوطني.

رابعاً: أن المؤتمر لم يستقبل برفض شبه شامل من قبل الشعوب العربية فحسب، بل ربما ساهم في تحريك مشروع مناهضة التطبيع الذي مر بمرحلة جمود مقلق في السنوات الأخيرة نتيجة ضغوط قوى الثورة المضادة.

لقد كانت حماقة مخططي المؤتمر وداعميه من أهم عوامل فشله. فقد كان واضحاً منذ اللحظات الأولى لإعلانه أنه يستهدف إيران بشكل مباشر واعتبارها «العدو الأول» وليس قوات الاحتلال الإسرائيلية، الأمر الذي لم يستسغه الكثيرون. هذا الاستهداف جاء من قبل جهتين لا تحظيان باحترام كبير في الأوساط الأوروبية والدولية، الرئيس الأمريكي دونالد ترامب ورئيس الوزراء الإسرائيلي بنيامين نتنياهو. فقد كان خطابهما فاقعاً واستعلائياً، يتجاهل قوى النفوذ التفليدية خصوصاً أوروبا وروسيا والصين والهند. أغلب هذه الدول يتمتع بعلاقات متوازنة مع إيران، وساهم خمس منها (ومعها الولايات المتحدة في عهد الرئيس السابق باراك أوباما) في صياغة الاتفاق النووي مع إيران، وشعرت بخيبة أمل وغضب عندما أعلن ترامب انسحاب الولايات المتحدة من ذلك الاتفاق. وبرغم فرض عقوبات صارمة على الجمهورية الإسلامية من قبل إدارته إلا أن أوروبا قامت بخطوة غير مسبوقة بإقرار آلية نقدية للتبادل التجاري مع إيران تتجاوز الحظر الأمريكي، الأمر الذي أغضب ترامب. وكان غضبه واضحاً في تصريحاته المتكررة لاحقاً. ويمكن القول أن مؤتمر وارسو يضاف إلى قائمة المبادرات الفاشلة التي طرحها ترامب منذ استلامه الرئاسة قبل عامين. فقد أحدث استقطاباً حاداً في الكونغرس بسبب إصراره على بناء الجدار على الحدود مع المكسيك، وأحدث أزمة في العلاقات الدولية بانسحابه من الاتفاق النووي مع إيران، ودخل في معركة لا تنتهي مع نشطاء حماية البيئة وحقوق الإنسان بانسحابه من اتفاقية باريس ومن مجلس حقوق الإنسان. وحتى الآن لم

تنجح محاولاته انهاء المشروع النووي لكوريا الشمالية. واعاد الى العالم اجواء الحرب الباردة باعلان عزمه على تفعيل نسخة جديدة من «مشروع الدفاع الاستراتيجي» الذي اصطلح على تسميته في الثمانينيات «حرب النجوم» في عهد رونالد ريغان. وكان من نتيجة ذلك اعلان الرئيس الروسي الاسبوع الماضي استعداداه لاستخدام صواريخ نووية اذا ما أصرت أمريكا على تنصيب صواريخ استراتيجية في اوروبا.

مع ذلك لا بد من الاعتراف بان العالم مهدد بالمزيد من النزاعات بسبب اختلال التوازن الاستراتيجي بين القوى التقليدية والعودة الى سباق التسلح واستخدام لغة التهديد والقوة وتراجع لغة الدبلوماسية والاحترام المتبادل. ومن المؤكد ان خروج بريطانيا من اوروبا اضعف دورها الاستراتيجي وفسح المجال امام قوى صغيرة اقل شأنًا لممارسة ادوار لا تحسن اداءها. ففي الوقت الذي اصبح ترامب مدافعا شرسا عن «اسرائيل» تمارس بريطانيا دورا مشابها، وذلك بتصديها للدفاع عن السعودية بشكل غير لائق. فقد عبرت عن انزعاجها من القرار الالماني بالتوقف عن تزويد السعودية بالسلاح وتجميد صفقة لبيعها 48 طائرة «تايفون» وشجعت على تخفيف حدة انتقادات السياسة السعودية. كما كانت من الدول الاوروبية القليلة التي حضرت مؤتمر وارسو ممثلة بوزير خارجيتها. ولا يبدو ان بريطانيا منزعة من توسع الدور السياسي للتحالف السعودي- الاماراتي. فقد صمتت على اختراقه الحدود مع البحرين في منتصف آذار/مارس 2011، وما تزال تدرب اجهزة الامن في السعودية والبحرين، وتعرض اية محاولة دولية لشجب اي منهما. وفي غياب المحاسبة الدولية لممارسات الرياض والمنامة بحق شعبيهما، حتى بعد مقتل خاشقجي وفتح ملفات التعذيب في البحرين خلال اعتقال الرياضي حكيم العربي في تايلاند، وفي ظل استمرار سجن النشطاء الاماراتيين، تشجع التحالف لتوسيع دوره الدولي ضمن الاستراتيجية الأمريكية - الاسرائيلية.

هذا هو جوهر النشاط الدبلوماسي المحموم من واشنطن الى تل ابيب، مرورا بوارسو فالرياض فابوظبي، وصولا الى اسلام آباد ودلهي وبكين. حرب ارادات تاريخية ما تزال الشعوب العربية والاسلامية مغيبة عنها، فهل تستوعب هذه الشعوب فحوى هذا الصراع ام تبقى مخدرة تحت تأثير الدولار النفطي؟

كاتب بحريني